

عبد الرحمن بدوى

كيف تكون الفلسفة

أنور عبد الملك

obeikandi.com

كيف يكون المدخل إلى رجل لا يقبل التصنيف المسبق؟، ماذا لو كان مناضلاً وطنياً، ومفكراً تنقيبياً، وكذا شاعراً هائماً معنياً بالتراث، موسوعى المعرفة، عقلياً علمياً عصرياً يجمع بين الشرق والغرب، وإنما أركان شخصيته وفكره تفوص فى أعماق الوجدان والحضارة التى ولد وعاش فى قلبها؟
ما السبيل، أو بالأحرى: كيف تكون المداخل، إلى ظاهرة تنكر لها جيل بعد جيل من الأميين، وعجز من أدر كها عن إضاءة معالمها؟

على هذا النحو، تراكمت التساؤلات بين إشراق الذكريات وجراح المسيرة، وعندما شاعت الظروف أن يعود اسم أستاذنا الجليل عبد الرحمن بدوى - رويداً رويداً - إلى قلب الاهتمام الثقافى والوطنى والقومى فى مصر والعالم العربى والإسلامى بعد طول غياب، لعله كان تغييباً.

التقى جيلنا - جيل الأربعينيات - باسم عبد الرحمن بدوى أثناء الحرب (١٩٣٩ - ١٩٤٥) تارة من خلال التلقى أو الاصطدام لتحرك «مصر الفتاة» و«الحزب الوطنى»، وتارة من خلال كلام جاغنا من أروقة جامعة القاهرة (جامعة فؤاد الأول آنذاك) تشير إلى عدد من نخبة فكرية وعلمية متميزة، من العميد إلى المعيد - على مصطفى مشرفة وبولس جالينوجى ومراد كامل وعلى إبراهيم وحسين فوزى وسامى جبرة وأحمد فخرى، كوكبة لامعة سطعت فى سماء مصر - آنذاك - ثم أسماء شابة من بينها من سمعنا أنه شاب يعنى بالفلسفة عبر دروب غير مألوفة، قيل إنها «وجودية»، وأحياناً «صوفية».

تنوعت مداخل التلقى، حتى جاء «الزمان الوجودى» (١٩٤٥) رسالة الدكتوراه التى تأكد فيها لكل قارئ جاد أن صاحبها يمثل بالفعل بعداً جديداً فى الطموح الفلسفى والجرأة الفكرية، والقاهرة تنن تحت الأحكام العرفية، وإطفاء الأنوار مساءً، فى حرب لم نكن فيها طرفاً، إنما اتخذت من بلادنا قاعدة لقوات الغربيين فى الشرق الأوسط.

لم يكن أمامنا أن نسعى إلى لقاءات، فالكل منهمك فى تأسيس التنظيمات الوطنية.

والتقدمية الثورية على أرض مصر، إيماناً منا أن الحرب سوف تؤدي إلى انكسار النظام القائم آنذاك، وأن الثغرة سوف تمكننا من تحرير الأرض والتحرك صوب النهضة.

هكذا، تأخرت مرحلة الدراسة الجامعية عشر سنوات، فكان أن اخترت الالتحاق بكلية الآداب جامعة إبراهيم باشا الكبير (جامعة عين شمس فيما بعد) - بفضل تدخل أستاذنا العميد الدكتور طه حسين وزير التعليم آنذاك، في سبتمبر سنة ١٩٥٠ يوم تأسسها مختاراً قسم الفلسفة، إعجاباً باسم عبد الرحمن بدوي، وتشوقاً إلى التلمذ على يديه، وقد استحسن الأستاذ العميد طه حسين، هذا الأستاذ آنذاك، ورأى فيه تشابك الأجيال بشكل ربما لا يتفق مع أبعاده المستقبلية.

هنا، بدأت علاقة فكرية ووجدانية وإنسانية كانت، - ولاتزال - محوراً تكوينياً رئيسياً لما تعلمناه، وما استطعنا أن نهم به في مجال الفكر الفلسفي ابتداءً من تساؤل طلاب كواد الحركة الوطنية التقدمية المصرية في نهاية الموجة الفكرية السلفية المضادة «بلاش فلسفة».

ومادام المجال هو إضاءة نواح من سيرة ورسالة أستاذنا الجليل، لا تدوين صفحات من حوليات الجيل المغيب، فلعل الأوفى أن يكون التركيز على محاور محددة، يمثل كل منها ناحية من الرسالة التي أداها أستاذنا الجليل عبد الرحمن بدوي أستاذاً ومعلماً رائداً لكل من تتلمذ على يديه وأحاط به عبر مسيرة مصر الطويلة المشرقة رغم المأسى.

* * *

الدرس الأول الذي تعلمناه من عبد الرحمن بدوي إنما هو خصوصية الأستاذية لمن يتصدى إلى هذا المقام. فقد رأس قسم الفلسفة بجامعةنا الفتية منذ إنشائها بدرجة الأستاذ المساعد رغم ما كان له من عديد من المؤلفات آنذاك، احتراماً منه للوائح التدرج الوظيفي في سلم الأستاذية بالجامعة، وقد استحضر من أوروبا وجامعات مصر لقيف من كبار الأساتذة يكبرونه سناً ومقاماً - «دييس» و«ارنلدين» ويوسف مراد ومصطفى زيور وحلمى مراد وغيرهم... إلخ -، همّ الأول أن يمنح

طلابه أرقى مستوى من المعارف الفلسفية والعلمية، وكانه رئيس أركان حرب لجيل جديد يعدّه للوطن بعيداً عن الشكليات.

كان أسلوب التدريس هو ذلك الذى قرأنا عنه: فمن ناحية، الإملاء دون مذكرات، ومن ناحية أخرى، فتح النقاش من أوسع الأبواب فى كل محاضرة ولمدة عشرين دقيقة، ثم وكأنا نجمع بين أسلوب الأروقة والمشائين، جلسات يومية تمتد نصف ساعة، أو ساعة كاملة فى مكتبه - بعد المحاضرات - مع من سيأتيه من طلابه من النقاش والسؤال والاشتباك الفكرى أحياناً. وقد أفدت من ترحابه اليومي عبر سنوات الدراسة، أسأل، وأجادل، أنتفض، وأنبهر، وهو دائم المنح، واسع الصدر. وأذكر أنه التفت إلينا فى عديد من المناسبات، مستفزاً بسؤال كله تحدٍ: «أين رأى الماركسيين ترى؟». وقد حدث أنه فى إحدى المحاضرات، وأمام صمت الماركسيين - وكانوا اثنين الصديق المرحوم فيليب جلاب وكاتب هذه السطور - قرّر رفع الجلسة وإنهاء المحاضرة احتجاجاً على امتناعنا عن مجادلته، وعندما صعّدت إلى مكتبه فى الطابق الأول، لامنى لوماً مرأً، وندّد بموقفنا على أنه يمثل السلبية الفكرية، ورفض ممارسة حق الطالب فى تحصيل العلم وانتزاع المعرفة بمناقشته، بل والتصدى له.

ولا داعي - بطبيعة الأمر - للتأكيد على أن هذا الموقف كان يقتضى منا قدراً عالياً من متابعة طبقات الفكر الفلسفى المتدفق، دعنا من القدرة على مجادلة أستاذنا الموسوعى.. ولكننا حاولنا أربع سنوات، بفضل ترحابه وإصراره، فكانت سنوات لا مثيل لها فيما رأيته فى أقسام الفلسفة فى معظم جامعات الغرب، بل والعالم، فى مستوى الليسانس أو البكالوريوس.

كان أستاذنا - ولا يزال - يعادى الماركسية والشيوعية عداءً جذرياً - إيماناً وعلمانياً - وإن كان ومنذ اليوم الأول يحترم فى التوجه الاشتراكي للفكر المصرى، الأصالة والجدية والقدرة على التضحية، بينما اختفى الانتهازيون والمرتزقون أذعياء الثورة، ومنهم من أثرى على حسابها، باحتقار الواجب.

لم تكن المحاضرة مجرد إلقاء لتحليل الموضوع، وإنما كانت دوماً، ترتكز على جزء وافر من المراجع بكافة اللغات، يجبرنا على نقلها - كما أجبرنا على تعلم اللاتينية

واليونانية - لكي لا نتصور أنه صاحب الأفكار التي يطرحها، وأنه ليس صاحب
الرأى الوحيد الصائب، إذ لابد لمن يريد أن يتعلم أن يمسك أولاً بمفاتيح مصادر
المعرفة على تنوعها واختلاف مساراتها.

أخذ عليه البعض القسوة ورفض المجاملة، فقد بلغ عددنا فى السنة الأولى فى
قسم الفلسفة ستة وخمسين طالباً، وأصبحنا أحد عشر طالباً فى السنة الرابعة، وإذا
به يصرح فى المحاضرة الأولى فى شهر سبتمبر ١٩٥٢ أنه لن ينجح منا أحد، لأن
مادة «المنطق الصورى» سوف تشمل «المنطق الرياضى»، وأن أحداً منا لن يتمكن من
فك طلاسمه، وقد اهتمت إلى أن ذلك التهديد جاد، فقررت أن أنكب على دراسة
المنطق الصورى وإهمال المنطق الرياضى كلية، بينما رأى زملائى وزميلاتى أن
يجمعوا بين الاثنين. وفى يوم الامتحان استطعت أن أقلت من المذبحة بالإجابة عن
السؤال الأول دون الثانى، فكان أن حصلت على درجة اليسانس فى يونيو ١٩٥٤
بدرجة جيد جداً، وكنت الوحيد فى هذه الدفعة الأولى، مما أحرز قلبى، فقد كان معنا
لفيف مرموق من خير الزملاء أطاحت بهم معادلات المنطق الرياضى. وإن كانت القوة
والتشدد من منطلق علمى بلا شك، كم كان بودى أن يحنّ قلب أستاذى الجليل
لزملائى وزميلاتى فى تلك الدفعة الأولى التى مرتّ بخير والحمد لله فى ملحق
سبتمبر.

وقد درسنا على يديه عدة مواد: «المدخل إلى الفلسفة العامة» و«علم المعرفة»
و«مناهج البحث» و«تاريخ الفلسفة الإسلامية» و«تاريخ الفلسفة الأوروبية الحديثة
والمعاصرة» و«فلسفة الأخلاق والتاريخ والسياسة». وقد عرض علينا - منذ السنة
الثانية - بحث سنوى يتراوح بين عشرين وأربعين صفحة فى موضوع يختاره كل
منا، وذلك ليدرّبنا - منذ البداية - على الكتابة الفلسفية، وبعدها لمرحلة الماجستير
والدكتوراه فيما بعد. وقد كان من شأنى فى إحدى السنوات أن أنكبت شهوراً
طويلة على دراسة محاورة «فيليبوس» لأفلاطون وجوهرها ومسألة الثنائية وتناقض
الأضداد، ولعله أراد أن يمتحن قدرتى على التعمق فى فهم الجدلية التى كنت أعتقد
مذهبياً - آنذاك - ومازلت.

وقد لفت أنظارنا أنه كان يقيم البحوث السنوية بصدر رجب على عكس الامتحان النهائي، وكأنه يريد أن يعترف بأن الجهد المتصل يستحق التشجيع والمساندة - درس من الدروس العديدة لمعنى الأستاذية في أرقى مستوياتها.

كنا نسأله على نويات متتالية: لم «الوجودية»؟ وما قصة الوضعية المنطقية التي كان يرفضها، ونحن معه، من زوايا أخرى؟ أردنا أن نعرف لماذا كرس نفسه شهوراً عديدة لتقديم «رابعة العدوية» فهل الهيام طريق إلى التفلسف، أو التصوف؟ أدركنا أنه يعشق الحب، وله فيه صفحات هيامية في مؤلفاته «رابعة العدوية» و«شطحات الصوفية» وكتاب سيرته الذاتية العاطفية «الحدود والنور»، كان البعض يعيب عليه أحياناً اللا- تاريخية، والحق أنه ليس كذلك، بل كان أقرب منا تأكيداً لتأصيل الوجود التاريخي، كما جاء - مثلاً - في التلخيص الساطع الذي قدمه لفكره في «موسوعة الفلسفة» (الجزء الأول، بيروت ١٩٨٤):

«وجود أولاً لا وجود، تلك هي المسألة، هنا أيضاً فإن كان وجوداً، فلا بد من الزمان، وأما من دون الزمان، فليس ثمة وجود، ولا واسطة بينهما. أما عن الأوليّة بين آتات الزمان، فالرأى بإزائها قد انقسم - كما هو طبعي - إلى ثلاثة مذاهب: مذهب يقول بفكرة الحاضر السرمدي. ولذا يجعل الأوليّة والأوليّة - معاً - للحاضر، ومذهب يجعلها للماضي، وإليه ينسب المؤرخون وأصحاب النزعة التاريخية بوجه عام، ومذهب يجعلها للمستقبل ويمثله أصحاب النزعة الدينية، خصوصاً كيركجور وهيدجر. أما نحن فلا نذهب إلى القول بتفضيل أن على أن، بل نؤكد وحدة الآتات الثلاثة وحدة تامة في تكوينها الزمانية الأصلية الحقيقية. أما الزمانية الزائفة فهي تلك التي تتعلق بأحد هذه الآتات دون الأخرى. ذلك أن فكرة التوتر في الوجود تقضى علينا بهذا.

ومن هذا البيان لطبيعة الزمان قد انتهينا إلى الكشف عن حقيقتين رئيسيتين: الأولى أن لا وجود إلا مع الزمان وبالزمان، وأن كل موجود لابد متزامن بالزمان، وتلك هي ما نسميه تاريخية الوجود. والثانية أن كل أن من آتات الزمان مكيف بطابع إرادي عاطفي خاص، فالزمانية إذن كيفية. وهاتان الحقيقتان معاً هما ما نعبر عنه بقولنا إن الوجود ذو كيفية تاريخية».

أعترف، بكل تواضع وصراحة، أننا لم نكن ندرك عمق الجذور التاريخية لفكر عبد الرحمن بدوى - آنذاك - فقد دفعت بنا الأيديولوجية إلى الابتعاد عنه مادام أنه يستعمل عبارة «الوجودية»: بينما «الزمان الوجودى» من نسيج آخر، يقرب إلى مسار كبير فلاسفة هذا الجيل «مارتن هيدجر» الذى طالما كان يحدثنا عنه ونحن نتأفف أمام رسائل «مدخل إلى الميتافيزيقا» ثم هناك الرسالتان اللتان كان يطيب له أن يفتتح بهما محاضراته، كأنه يستفزنا إلى التصدى لأهوال العمر: «اعلموا أن أصعب ما فى الحياة إنما هو الاستمرار فى الحياة».

مقولة الزمان كانت تبدو لنا معقولة وإن كانت غير مقبولة لشباب يتصور أنه محق فى كل شىء.

أما المقولة الثانية، فقد كانت ترمز إلى أبعد من مجرد الحياة الجسدية، إذ تشير إلى المشاق النفسية والأخلاقية والذهنية والروحية كلما اقترب الإنسان من مرحلة النضج ثم العمر المتقدم فالشيخوخة إلى نهاية الطريق.

من أين، ترى، هذه الصعوبة الشاقة؟ أفليست الحياة نهراً أزلياً أبدياً، ينتهى، نعم، ولكنه يتدفق دون إبطاء فى كافة المراحل؟

وقد علمتنا الحياة حكمة هاتين الرسالتين. أسئلة. تساؤلات. إشكالية الفكر التقييى فى عصر الحرب الأوروبية الثانية وقد امتدت فجاءة إلى المحيط الهادى وإلى الصين واليابان. كنا على يقين وكان هو على طريق. وكنا - معاً - نبحث عن «مناهج الألباب المصرية» علنا نحقق الحلم الكبير. تحرير مصر، استقلال إرادتها، نهضتنا المصرية والحضارية.

لعله من المفيد لمن يتصدى إلى الأستاذية فى عصرنا وبلادنا أن يتعلم من أستاذنا الجليل عبد الرحمن بدوى هذا التواضع الفكرى والحرص على إتاحة المجال للحوار الجدلى ومسارات الإجابات الممكنة، فى الوقت عينه الذى تتدفق فيه المعرفة الفلسفية سيلاً جارفاً ابتداءً من التحصيل الدوب الدقيق المتصل عبر السنوات والعهد. فلا مجال للأستاذية إلا إذا قبل الأستاذ، بادئ ذى بدء، أن يتواضع ويدرك حدوده ويتعلم يوماً بعد يوم بالاحتكاك بواقع عالمنا المتغير وكذا أفكار طلابه المتأججة أو الشاردة.

لا مجال للاستاذية دون التساؤل الفلسفى.

* * *

ثم كان الدرس الثانى، يصب هذه المرة فى جوهر وقلب الوطن والحركة الوطنية من أوسع الأبواب.

كانت الأولوية - ولاتزال - فى معرفة الفكر والمجتمع المصرى والعربى والأفريقى والإسلامى والشرقى هى تعاليم وكتابات علماء الغرب ومفكره، وكان الذات المصرية والعربية والأفريقية والإسلامية والشرقية لا تصلح منبعاً ولا تتيح المجال لبروز فكر إبداعى ذاتى، وكأننا على موعد مع التبعية - بالأصالة أو بالمولد - وهو الموقف الفكرى المنهجى الذى فندناه بشكل جذرى فى دراستنا عن «الاستشراق فى أزمة» (مجلة ديوجين، أليونسكو ١٩٦٢)، فكانت دعوة لتفكيك الاستشراق، وكان لها فيما بعد وحتى اليوم أثر واسع فى تحديد مسار العلوم الإنسانية والاجتماعية منذ الستينيات.

سود إلى الدرس الثانى، فلنذكر - أولاً - منهج أستاذنا عبد الرحمن بدوى فى تعليمنا الفلسفة الإسلامية. فقد استند إلى رسالة أستاذه، أستاذنا الكبير الشيخ مصطفى عبدالرازق فى كتابه الوجيز عميق الدلالة «تصهيد تاريخ الفلسفة الإسلامية» (القاهرة ١٩٤٥): «وهو الكتاب الذى يشتمل على بيان لمنازع الغربيين والإسلاميين مما فهم فى دراسة الفلسفة الإسلامية وتاريخها. والباحثون من الغربيين كأنما يقصدون إلى استخلاص عناصر أجنبية فى هذه الفلسفة، ليردوها إلى مصدر غير عربى ولا إسلامى، ومن هنا جاء المنهج الجديد الذى «يتوخى الرجوع إلى النظر العقلى الإسلامى فى سذاجته الأولى، ويتتبع مدارجه فى ثنايا العصور وأسرار تطوره». أى أن المصدر لمعرفة الفكر والفلسفة إنما هو بالتنقيب عن جذورها التاريخية الذاتية، لا بمقارنتها بمسارات الفكر الفلسفى فى البيئات الثقافية والحضارية الأخرى باعتبارها المرجع والقاعدة والأصل.

لم أكن أدرك - آنذاك - أثر هذا المنهج على ما تم فيما بعد عندما لبى دعوته الأولى للعشاء فى «كازينو بديعة» على النيل فى يوليو ١٩٥٤، بعد تخرج أولى دفعات

قسم الفلسفة بجامعة عين شمس لعرض موضوع دراسة الماجستير. كنت - آنذاك - أتجه إلى فلسفة التاريخ عند هيجل. فإذا به يرفض ويشجبني بعنف متسائلاً عما فى وسعى أن أضيفه إلى سيل المؤلفات حول هيجل وفلسفة التاريخ لديه، وخاصة وأنى كنت آنذاك لا أعرف اللغة الألمانية. وأضاف أنه يتشكك فى جدوى مثل هذه الدراسة بالنسبة لشباب المفكرين المصريين، مؤكداً - بإصرار بالغ التشدد - أن الواجب يقضى أن ينكب الجيل الجديد من مفكرى مصر على دراسة الفكر المصرى فى إطاره الحضارى المتخصص - وإلا فمن الذى يقوم بهذه المهمة؟ وكان من جراء هذه السهرة والصدام بين رؤيتى أننى بدأت أراجع نفسى، فرأيت أولاً أن أنكب على دراسة الفكر المصرى المعاصر، واتفقنا على تأجيل الموضوع على وجه التحديد، ثم جاءت مرحلة «الصراع فى الظلام» التى أثارها أصحاب فكرة التناقض بين «أهل الثقة وأهل الكفاءة»، فكان أن قررت قيادة الثورة بعد أزمة ربيع ١٩٥٤، واشتدادها فى مرحلة الصراع مع رفض الولايات المتحدة لتمويل السد العالى وقرار الرئيس جمال عبد الناصر للذهاب إلى باندونج، أن بدأت حركة قمع اليسار المصرى دون مقدمات، أو أسس قانونية، بشكل متصل وسرى بين عام ١٩٥٤ - ١٩٦٤، تخللها الجبهة الوطنية المتحدة من يوليو ١٩٥٦ حتى ديسمبر ١٩٥٨، ثم من ١٩٦٥ حتى ١٩٧٠.

وكان من سوء حظ كاتب هذه السطور أن يُزج به إلى معتقل «أبوزعبل» للحاق بطليعة الفكر والعمل التقدمى فى ١٠ أبريل ١٩٥٥ مدة ١٤ شهراً. نترك القصة والذكريات ونعود إلى الفلسفة، كان التساؤل الفلسفى فى أبى زعبل «ما الذى جاء بنا إلى هذا الوضع المفزع؟»، ثم «من أين هذا الصراع بين قوى، مختلفة، نعم، ولكنها تصبو إلى الهدف التحريرى الوطنى التنموى النهضوى نفسه؟»، وهى، أى هذه القوى المتباينة، تكاد تكون متجانسة من حيث انتمائها إلى شرائح الطبقة المتوسطة والبرجوازية الصغيرة وطلائع الحركة العمالية والطلابية والفكرية. «ما معنى هذا الصراع فى الظلام؟»، فإذا كان واقع الأمر كما ذكرنا، أصبح التحليل الطبقي قاصراً.

وإن قلنا بأولوية البعد السياسى، لكان من الممكن استبعاد المعارضة دون شراسة الاعتقال والاضطهاد وأهوال ما تم. كان لابد - إذن - من البحث عن توجه آخر، عن مستوى أعمق فى عمق أعماق أمتنا المصرية لعله يفسر - وإن كان لا يبرر - ذلك الذى حدث وكانت نتيجة إضعاف الجبهة الوطنية المصرية حتى انكسار ٥ يونيو ١٩٦٧.

من هذا الوضع الملتهب، وتلك التساؤلات الجذرية، عدت إلى تعاليم أستاذنا عبد الرحمن بدوى: أفلا يكون التوجه واجباً نحو التنقيب عن الجذور الفكرية فى مختلف قطاعات المجتمع المصرى وحركتنا الوطنية؟ أفلا يكون من اللازم علينا أن ندرس الصياغة التاريخية بمختلف مدارس الفكر والعمل فى مرحلة نهضة مصر منذ انتخاب محمد على والياً على مصر (١٨٠٥)؟ وكان هناك عند النخبة إدراك بأن ثمة تبايناً بين المناخ الفكرى للقوى السياسية المختلفة. ولكن الشعور باختلاف المناخ شىء، والتنقيب العلمى عن أسباب ونوعية ذلك التنوع شىء آخر. من هنا كان قرارنا - عملاً بتوجيه أستاذنا إلى دراسة الفكر المصرى - بتكريس جهدى سنوات البحث العلمى - بعد المعتقل - لدراسة صياغة الفكر المصرى المعاصر. فكانت رسالة الدكتوراة الأولى فى علم الاجتماع «الفكر السياسى العربى المعاصر»: مصر (باريس - السوربون ١٩٦٤)، ثم رسالة دكتوراه الدولة فى الآداب عن «تكوّن الأيديولوجية فى نهضة مصر القومية» (١٨٠٥ - ١٨٩٢) [الجامعة نفسها ١٩٦٩] - وهو المؤلف الذى أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب فى القاهرة فى طبعة مطورة، بعنوان «نهضة مصر» (القاهرة ١٩٨٢).

هكذا أمكن التوصل إلى جذور المدرستين الرئيسيتين للفكر والعمل: مدرسة التحديث الليبرالى ابتداءً من رفاعة الطهطاوى، ثم، وبعد بداية توغل الإمبريالية، مدرسة الأصولية الإسلامية حول محمد عبده، وقد دلت الدراسة على أن ظروف مصر الجيو - سياسة، وتوالى الهجمات الإمبريالية لتفتيتها من الداخل ومحاصرتها من الخارج لم تمكن طلاب مصر الفكرية والسياسية أن تصوغ دائرة صهر هذين التوجهين بشكل كافٍ من التماسك والتجانس إلى مستوى التركيب، فظل التأليف

التركيبى الغالب بدلا من الوحدة المتجانسة - وهو الأمر الذى امتد إلى حياتنا فى نهاية القرن العشرين، فازداد بشكل ملحوظ تحت تأثير الإعلام الكونى المضلل، وتسرب ثقافته الرأسمالية الريعية، والسفسافية غير المنتجة، والصهيونية العدمية، إلى قطاعات من أركان حياتنا الاجتماعية.

موضوع كبير يستدعى مضاعفة الجهد العلمى والفكرى والفلسفى لرأب الصدع وبلورة مشروعنا القومى والحضارى الجديد فى مرحلة صياغة العالم الجديد الذى نحياه.

لعلنا أطلنا - بعض الشيء - فى الجمع بين هذا الدرس الثانى وإحدى ثماره الميدانية، ولكننا لابد من أن ندلل على مغزى الدرس بآثاره وثماره. وهنا، مرة أخرى، يرجع الفضل إلى أستاذى فيما حاولنا أن نحققه فى هذا المجال المتعين من الإنتاج الفكرى الفلسفى.

يتساءل البعض، وأحيانا بنوع من السخرية: كيف أن المفكر الموسوعى العصرى عبد الرحمن بدوى بدأ يتوجه منذ سنوات إلى دراسة الفلسفة الإسلامية والإسلام حضارة ورسالة فى كتاباته الأخيرة؟! التساؤل نفسه الذى قام بالنسبة لأستاذنا الكبير زكى نجيب محمود فى المرحلة الأخيرة الفنية من مؤلفاته. وهنا، مرة أخرى، موقف اغتراب عديد ممن يتصدون لفكر والثقافة والفلسفة فى مصر وأمتنا العربية، بالنسبة لحدورنا الحضارية، وكان دراسة الإسلام والعروبة - بل وعند قطاع بدوى يتصاعد، حضارتنا التاريخية العظمى، فى مصر الفرعونية، وكذا حضارات ما بين النهرين والشام - أمر غريب، على المصريين والعرب. وكان إعادة فتح أبواب البيت، أبواب بيت أسلافنا وأبائنا وأخوتنا وأبنائنا، أمر غريب، مادام الغير هو الأساس، عودة إلى مقولة على الاستعمار: إن بلاد مصر خيرها لغيرها.

يقول أستاذنا الجليل ومن حوله كوكبة مفكرينا وفلاسفتنا: بل إن مصر خيرها لأبنائها، وأمة العرب خيرها لأولادها، وحضارتنا الإسلامية والشرقية ملك لبنائنا وأبنائنا أجمعين، على تنوع قومياتهم ودياناتهم ومذاهبهم الاجتماعية.

ثم يأتى الدرس - التمسك بالريادة الأخلاقية - الثالث ولعله تجميع لما سبق، وإن كان يبدو متخصصاً فى الزمان والمكان والوقائع والأفراد. تحدثنا عن «الحرب فى الظلام» وعن مأساة (معتقل أبى زعبل) ومن بعده (الواحات). قد شاعت الظروف أن

قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة عين شمس قد أعلن في «الأهرام» في صيف ١٩٥٥ عن حاجته إلى معيدين بالقسم. وقد شاعت الظروف أن يكون أول دفعة خريجي كلية الآداب جامعة القاهرة إسماعيل المهدي، وكتاب هذه السطور يشاركه الشرف بالنسبة لأول دفعات كلية الآداب جامعة عين شمس، أن يكونا من نزلاء «أبي زعبل».

وكان أن وصلت نسخة «الأهرام» إلى المعتقل بالطرق المتعارف عليها في مثل هذه الظروف، فرأينا أن نتقدم بطلب رسمي وعليه ورقة التمتع إلى الكلية، وكنا - آنذاك - في أهوال لا نودّ العود إلى ذكرها أو تذكرها. وقد نهانا مأمور قسم التأديب بالمعتقل عن هذا العمل وقال: «إن هذين الطالبين، لو تم تحريرهما سوف يصلان إلى الكلية وعليهما أختام مأمور قسم التأديب بليمان أبي زعبل، ثم مدير الليمان، ثم مدير المكتب المختص بانبوليس السياسي، ثم وكيل وزارة الداخلية والأمن العام، وربما من يعلوه مرتبة، فكيف إذن يكون تصرف الكلية؟»، ولكننا تمسكنا بحقنا الدستوري: أفلم نكن أول دفعة الفلسفة بآداب القاهرة وآداب عين شمس؟ وبالفعل حررنا الطالبين، ووصلت الأوراق مملوءة بالأختام إلى رئيس قسم الفلسفة، الدكتور عبد الرحمن بدوي.

ثم كان ما كان، وما كان يجب أن يكون، احتراماً لتقاليد الجامعة والمعايير العلمية المعمول بها، (...) وبالفعل لم يتم تعييننا، ثم - وبعد الإفراج عنا - علمنا أن الدكتور عبد الرحمن بدوي قد ترك العمل في رئاسة القسم بالكلية وتم انتدابه مستشاراً ثقافياً في سفارة مصر بسويسرا أربع سنوات. ومن بعدها كانت رحلته إلى جامعات ليبيا والكويت حتى استقر به المقام - بعد سن التقاعد - في باريس، وقد اختارها مكاناً للإقامة، يقطع من غرفته في الفندق كل صباح - في السابعة والنصف - حتى نهاية اليوم يعمل في المقعد المخصص له - منذ سنوات - في «دار الكتب الأهلية» بباريس، وينتج كتاباً تلو الآخر، بمعدل كتابين كل عام، إلى جانب الموسوعات المتخصصة.

وشاعت الظروف أن تقترن هذه الفترة بنهاية عمله أستاذاً مديراً للأبحاث في

«المركز القومي للبحث العلمي» في باريس، والتركيز على عملنا الموازي في آسيا خاصة، منسقاً لكبرى المشروعات العلمية في «جامعة الأمم المتحدة، في طوكيو»، بحيث لم يسعنا أن نكون إلى جانبه بشكل متصل.

ورغم هذا، فقد جرت العادة، أن يرحب بنا أستاذنا، كلما أمكن ذلك، وقد تنوع مكان الاجتماع في فندقى المحبب ومنزلنا السابق في باريس، حتى استقر على المقهى الذى يطيب له أن يجلس فيه وقت الإفطار يوم الأحد أمام نهر «السين».

الكلام هنا يقودنا إلى باب آخر، باب المراجعات والذكريات لآمال المشروع وإجهاض المشروع، لم يتغير الرجل في أصالته وموقفه وتوجهه في أستاذيته. يشجبنى دوماً على ما لا يرضاه فى، موقف سياسى تطور فى سياق متسق، ولكنه يسعد باتصال العمل والأداء، يستنكر فترات الإحباط، ويستنكر التوقف عن الأداء أحياناً من ناحيتنا، يميز بدقة بالغة بين الوطنى الأصيل ومدعى الوطنية والثورية الساعين إليه.

باب جديد نرجو أن يمتد السنة تلو السنة وأن يتيح الله عز وجل لأستاذنا عمراً مديداً زاخراً بالإمداد والعطاء.

ولعل من طرائف الأمور أننى عدت إلى دراسة «هيدجر» - بشغف - منذ عشر سنوات، فتذكرت - بندم وسخرية - كيف كنت أفتقد موقف أستاذنا. صارحته فى ذلك فابتسم وضحك طويلاً وقال: «أخيراً، أخيراً وصلت... منبع عميق وصعب ولكن الحمد لله».

لا أستطيع أن أختتم هذه السطور القلائل عن مغزى رسالة أستاذنا الجليل دون استخلاص ما أراه أنه - حقاً - تقصير من مصرنا المحروسة فى حق أمتنا وشعبنا وحضارتنا.

إننا نعيش - نحن معشر المصريين والعرب المسلمين - فى عصر ارتفع فيه لواء الفكر الفلسفى فى مستوى ما كان عليه فى عصر «ابن سينا» و«ابن رشد» و«الفارابى» و«ابن خلدون» بفضل كوكبة من الأساتذة، وعلى رأسهم، وفى مقدمتهم، عبد الرحمن بدوى.

أتساءل، وتساءل جميعاً: أين مصر؟ أين دولتنا، وحكومتنا، وجهاتنا ومجالسنا المختصة، ووزراؤنا؟

كيف لا تدرك مصر أن في عنقها - بل في عنقنا جميعاً - ديناً عظيماً، لهذا المفكر العَلم الذي كَوّن جيلاً بعد جيل من كبار الأساتذة والمفكرين في أرضنا المصرية والعربية، وأثرى حضارتنا المصرية والعربية المعاصرة بمكتبة موسوعية على أرفع مستوى؟

أفلا يحق لمصر أن تلتفت إلى ذاتها فيكرم رئيس الدولة الأستاذ الجليل عبد الرحمن بدوي بأرفع الأوسمة، وهو الذي جمع في شخصه أصالة الوطنية، وعمق الريادة الفكرية، واتصال العطاء والمنح منذ الشباب حتى سنوات العمر المتقدمة؟
والحق أن أرفع الأوسمة، بل وإنشاء جائزة خاصة به، تمنح باسمه - فيما بعد - إلى العاملين في سبيل الفكر المصري والعربي والإسلامي، بمناسبة مؤتمر عالمي تقيمه مصر للاحتفال بابنها العظيم على أرض الوطن وفي القاهرة المعز، إن هذه الأمور وما يواكبها، أصبحت لزاماً علينا - جميعاً - عملاً بقول صديق مصر العظيم «شوايلى، رئيس وزراء الصين و صديق جمال عبد الناصر منذ باندونج:

«فلنذكر من حفروا الآبار إذ نشرب من مائها».